تزيين الأعمال في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

إعداد الدكتورة:

رقية بنت محمد العتيق

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

جامعة الأميرة نوره بنت عبد الر

كلية الآداب- قسم الدراسات الإسا

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على النبي الأمين ﷺ .أما بعد؛

فإن الناس في واقعهم المعاصر بحاجة للتحذير من تزيين الأعمال والتنبيه على الوسائل القرآنية للوقاية منها، ولذا كان هذا البحث المعنون بـ (تزيين الأعمال في القرآن الكريم -دراسة موضوعية-) لبيان أسباب تزيين الأعمال وآثارها وأنها بالجملة لا تخرج عن مشيئة الله وقدرته وفق سننه. وقد قسمته إلى: مقدمة، وتمهيد وأربعة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: تناولت فيها: أسباب اختياره، والدراسات السابقة.

وتناولت في التمهيد تعريف التزيين، وروده في القران الكريم وأقسامه.

أما المباحث فهي على التقسيم الآتي:

المبحث الأول: تزيين الله تعالى للأعمال.

المبحث الثاني: تزيين الشيطان للأعمال.

المبحث الثالث: تزيين القرناء للأعمال.

المبحث الرابع: تزيين الأعمال لغير واحد (غير مسما فاعله)

الخاتمة: واشتملت على أهم نتائج البحث وتوصياته.

الكلمات المفتاحية: الإعجاب الذاتي بالأفعال - القرآن الكريم - تزيين الأفعال للشيطان- تزيين القرناء للأعمال

THE CONCEPT OF SELF-ADMIRATION OF DEEDS AS PRESENTED IN THE HOLY QUR'ĀN: AN OBJECIVE STUDY

DR RUQAYYA BINT MUHAMMAD AL-ATEEQ, ASSOCIATE PROFESSOR OF QUR'ĀN'S EXEGESIS AND SCIENCES, DEPARTMENT OF ISLAMIC STUDIES, COLLEGE OF ARTS, PRINCESS NOURAH BINT ABDULRAHMAN UNIVERSITY

dr-ateeg1@hotmail.com

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

Abstract

People of the current time need to be warned against self-admiration of their own deeds. Due attention should be paid to the Qur'ānic means to protect people from such embellishment sin. Therefore, this research paper aims to show reasons behind self-admiration of deeds, its consequences, and the fact that good deeds occur only according to Allah's will and His Divine system.

This paper falls into an introduction, a preface, four sections, and a conclusion.

- The introduction handles the reasons for selecting this topic, with a literature review.
- The preface introduces a definition of the phenomenon of self-admiration of deeds, its references in the Qur'ān, and its classification.
- The first section introduces praise of good deeds by Allah the Almighty.
- The second section introduces self-admiration of deeds inspired by Satan.
- The third section introduces pride-taking of deeds by one's companions
- The fourth section introduces the concept of self-admiration of deeds by anonymous ones.
- The conclusion includes the paper's most important results and recommendations.

Key words: self-admiration of deeds – the Holy Qur'ān – self-admiration as inspired by Satan – self-admiration as inspired by companions

Link to the article

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يليق بجلاله وكماله. والصلاة والسلام على من اصطفاه وأعلى مقامه. أما بعد؛

فما زال أهل القرآن المشتغلين به قديما وحديثا يحاولون كشف أسراره، وإبراز حقائقه، وإيضاح مبهمة، وحل مشكله، كل على قدر طاقته ومبلغ علمه، فأفنوا فيه الأعمار، وبذلوا فيه الأوقات، واستنفروا له الطاقات، إذ الاشتغال به أعظم أنواع القربات.

ولئن كانت هذه الجهود قد استُفرغ فيها الوسع؛ إلا أنها لم تغلق الباب بعدها للمتأملين، ولم توصده أمام الناظرين، وما هذا البحث المعنون بـ (تزيين الأعمال في القرآن الكريم -دراسة موضوعية-) إلا ثمرة تأمل ونظر في كتاب الله العزيز، لقد تناول القرآن الكريم قضية تزيين الأعمال مسبباتها وأسبابها وآثارها وأنها بالجملة لا تخرج عن مشيئة الله وقدرته وفق سننه وهو ما بينته في هذا البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

لقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع أسباب عدة منها:

١ - التحذير من تزيين الأعمال والتنبيه على الوسائل القرآنية للوقاية منه.

٢ - حاجة الناس في واقعهم المعاصر إلى الحلول القرآنية لعلاج قضاياهم الإنسانية المختلفة.

٣- افتقار المكتبة الإسلامية إلى دراسة علمية متخصصة تتناول هذا الموضوع من زاوية قرآنية تفسيرية.

أهداف البحث:

لهذا البحث أهداف منها :

١ -خدمة القرآن الكريم من خلال البحث في موضوع من موضوعاته.

٢- المساهمة في النهوض بالتفسير الموضوعي وإثراء المكتبة الإسلامية بموضوعات القرآن الكريمة المختلفة.

٣- لفت أنظار الباحثين إلى أن مجال الدراسات القرآنية لم تغلق بعد دونه الأبواب للمتأملين، ولم توصد بعد أمام الناظرين.

٤ -بيان مسببات تزيين الأعمال وأسبابها وآثارها.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والاستفسار حول الموضوع وقفت على بحثين مقاربين لموضوع بحثي :-

الأول: بعنوان (**الزينة** في ضوء القرآن الكريم - دراسة موضوعية للدكتور عوض محمد يوسف أبو عليا الأستاذ المساعد في قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم كلية أصول الدين/ جامعة الأزهر القاهرة. تناول فيه مؤلفه في التمهيد مفهوم الزينة عند العرب ومفهومه في الاصطلاح، وموارد الزينة في القرآن الكريم، وأقسامها، والفرق بين تزيين الله- عز وجل- وتزيين الشيطان الرجيم. ثم تطرق في مباحثه للزينة الحسية.

والفرق بين بحثي وهذا البحث تناولي للزينة المعنوية والتي لم يتطرق لها الدكتور بالدراسة إلا فيما يتعلق في الفرق بين تزيين الله- عز وجل- وتزيين الشيطان الرجيم في التمهيد حيث تناوله بشكل مختصر جدا.

الثاني: ألفاظ الزينة في القرآن الكريم دراسة في العدول الدلالي. لعقيل عكموش عبد. كلية التربية/ جامعة القادسية. يسعى الباحث فيه إلى استقصاء ألفاظ الزينة في القرآن الكريم، صيغة الفعل (زين) واشتقاقاتها الفعلية والاسمية، ومدى حضورها في الاستعمال القرآني، والوقوف على ما طرأ من عدول دلالي في التوظيف.

والفرق بين بحثي وهذا البحث في صلب الدراسة ظاهر حيث كانت الدراسة متعلقة بالاشتقاق اللغوي لصيغة الفعل (زين) من حيث العدول بها عن معانيها التي استقرت معجميا إلى دلالات أخرى اقتضاها السياق القرآني.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد وأربعة مباحث، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: تناولت فيها: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة.

التمهيد: تناولت فيه تعريف التزيين لغة واصطلاحا، ومرات وروده في القران والتحسين الحسي والمعنوي. أما المباحث فهي على التقسيم الآتي:

المبحث الأول: تزيين الله تعالى للأعمال.

المبحث الثاني: تزيين الشيطان للأعمال.

المبحث الثالث: تزيين القرناء للأعمال.

المبحث الرابع: تزيين الأعمال لغير واحد (غير مسما فاعله)

الخاتمة: واشتملت على أهم نتائج البحث وتوصياته.

منهج البحث:

وقد سلكت في البحث مسلكًا يجمع بين المنهج الاستقرائي والموضوعي والتحليلي ، واتبعت فيه الآتي:

١ . عزوتُ الآيات الكريمة الواردة في البحث إلى سورها وآياتها في القرآن الكريم.

٢ . عزوتُ الآثار والأقوال إلى مصادرها الأصلية من كتب التفسير وغيرها من المراجع المعتمدة.

٣. لم أترجم للأعلام طلباً للاختصار.

٤ . ذيَّلتُ البحث بقائمة تفصيلية للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

التمهيد

مفهوم التزيين:

الزاء والياء والنون أصل صحيح يدل على حسن الشيء وتحسينه. فالزين نقيض الشين[1].

قال الأزهري-رحمه الله تعالى -: «وقال الليث: زانه الحسن يزينه زينا. وازدانت الأرض بنباتها ازديانا، وازينت وتزينت، أي: حسنت وبهجت. والزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به»[2].

ووردت هذه المادة باشتقاقاتها وتصريفاتها في القرآن الكريم في نحو خمسة وأربعين موضعا. على عشرين وجها، ترجع لأصلين؛ تزيين حسي متعلق بالماديات من مثل تزيين السماوات بالكواكب: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وتزيين الأرض بالنبات الثمار والخضرة والمياه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧].

وتزيين معنوي متعلق بالأعمال كالمذكور في قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤].

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام :١٠٨].

وسيقتصر تناولنا في هذا البحث على ما يتعلق بالتزيين المعنوي، على ما سيأتي تفصيله وبيانه في ثنايا هذا البحث.

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس،٣/ ٤١ .لسان العرب، لابن منظور، ١٣/ ٢٠١.

(٢) تهذيب اللغة،للأزهري،١٣/ ١٧٤.

المبحث الأول

تزيين الله تعالى للأعمال.

أخبرنا الله – عز وجل – في كتابه الكريم أنه ما من أمة متقدمة، أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، بدين واحد، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، فقامت الحجة على الأمم بذلك، وانقسم الناس في موقفهم من هؤلاء الرسل قسمين: من هدى الله فاتبع سبيل الحق، ومن حقت عليه الضلالة فاتبع سبيل الغي.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل: ٣٦].

فكل الرسل عليهم الصلاة والسلام قبل النبي ﷺ أصل رسالتهم وغايتها العظمى الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

وقد أقام الله عز وجل لخلقه على ذلك البراهين والأدلة القطعية ومن تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[النحل:٢١ – ٢٢].

ففي هذه الآية (أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه آلهة من الأرض، سواء كانت أحجارا أو خشبا، أو غير ذلك من الأوثان التي تعبد من دون الله! فهل هم يحيون الأموات ويبعثونهم؟ الجواب: كلا، لا يقدرون على شيء من ذلك، ولو كان في السماوات والأرض آلهة تستحق العبادة غير الله لفسدتا وفسد ما فيهما من المخلوقات؛ لأن تعدد الآلهة يقتضي التمانع والتنازع والاختلاف، فيحدث بسببه الهلاك، فلو فرض وجود إلهين، وأراد أحدهما أن يخلق شيئا والآخر لا يريد ذلك، أو أراد أن يعطي والآخر أراد أن يمنع، أو أراد أحدهما تحريك جسم والآخر يريد تسكينه، فحينئذ يختل نظام العالم، وتفسد الحياة! وذلك: لأنه يستحيل وجود

مرادهما معا، وهو من أبطل الباطل؛ فإنه لو وجد مرادهما جميعا للزم اجتماع الضدين، وأن يكون الشيء الواحد حيا ميتا، متحركا ساكنا. وإذا لم يحصل مراد واحد منهما لزم عجز كل منهما، وذلك يناقض الربوبية. وإن وجد مراد أحدهما ونفذ دون مراد الآخر، كان النافذ مراده هو الإله القادر، والآخر عاجز ضعيف مخذول. واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن. وحينئذ يتعين أن القاهر الغالب على أمره هو الذي يوجد مراده وحده غير ممانع ولا مدافع، ولا منازع، ولا مخالف، ولا شريك)[1].

ومن تلك الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ*ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ*كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[غافر:٦١-٦٣].

ففي هذه الآيات دليلان وتكوينان عظيمان- الليل والنهار- دالان على عظيم قدرة مكونهما ومنظمهما وجاعلهما متعاقبين، المتفضل المنعم. ولكن أكثر الناس لا يشكرون النعم ولا يعترفون بها؛ مع أنه سبحانه بين في هذه الأدلة كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده. فكيف ينقلب الناس عن عبادته وينصرفون عن توحيده؟ مع أن المنطق يقضى بداهة بألّا تكون عبادة إلا للخالق وحده سبحانه وتعالى وأن عبادة غيره سبحانه ضلال مبين.

إنه لعجب أن يعرف الناس أن الله عز وجل هو الخالق لكل شيء معرفة عقلية مقتضاها وجود المخلوقات واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجِد. ثم يصرفون عن الإيمان والإقرار إلى الشرك.

عجب يزول إذا علمنا أن منشأ جرأتهم على الشرك مع قيام الحجة ووضوح الدليل؛ كان تزيين

(١) نور التوحيد وظلمات الشرك في ضوء الكتاب والسُّنَّة، للدكتور سعيد بن علي القحطاني. ص ٢٠.

الله أعمالهم في نفوسهم حتى حسبوا شركهم طريقا يتقربون به لله عز وجل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر:٣].

وكان هذا تزيينا بمقتضى حكمته التامة، وحجته البالغة، وسنته الجارية، فيما يشاؤه ويختاره، قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:١٠٨]. ففي هذه الآية يشير الله تعالى إلى ما زين لكل أمة من عبادة الأصنام؛ ومن التمسك بها؛ والذب عنها وليس مؤداه أنه يبرره، ويرضى عنه بل مردهم إليه عز وجل يوم القيامة فيُوقفهم ويخبرهم بأعمالهم ثم يجازيهم بها.

قال الطاهر بن عاشور – رحمه الله تعالى– : «فالمشار إليه هو ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الْجِنَّ﴾ –إلى قوله– ﴿فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠–١٠٨]. فإن اجتراءهم على هذه الجرائم وعماهم عن النظر في سوء عواقبها؛ نشأ عن تزيينها في نفوسهم، وحسبانهم أنها طرائق نفع لهم، ونجاة وفوز في الدنيا بعناية أصنامهم. فعلى هذه السنة، وبمثل هذا التزيين، زين الله أعمال الأمم الخالية مع الرسل الذين بعثوا فيهم؛ فكانوا يشاكسونهم ويعصون نصحهم ويجترئون على ربهم الذي بعثهم إليهم»(١).

لقد علم الله خبث طواياهم، فحرمهم التوفيق ولم يصرف إليهم عناية تنشلهم من كيد الشيطان. لحكمة علمها الله تعالى من حال ما جبلت عليه نفوسهم، فامتد ضلالهم من الشرك إلى إنكار اليوم الآخر، فتماثلت العقوبة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤].

قررت الآية أن هؤلاء الذين لا يصدّقون بالدار الآخرة، وقيام الساعة، وبالمعاد إلى الله بعد الممات والثواب والعقاب. حَسّن الله تعالى لهم ما هم فيه، حتى انقلبت عليهم الحقائق فرأوا

(١) التحرير والتنوير. ٧/ ٤٣٣.

الباطل حقا والحق باطلا. ومد الله لهم في غيهم وضلالهم يتيهون، عقوبة لهم على تكذيبهم بالدار الآخرة [1].

قال ابن كثير-رحمه الله تعالى-: « ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾إن الذين لا يؤمنون بالآخرة أي يكذبون بها ويستبعدون وقوعها زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أي حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة» [2].

وقال الطاهر بن عاشور-رحمه الله تعالى-: «أشارت الآية إلى معنى دقيق جدا وهو أن تفاوت الناس في قبول الخير كائن بمقدار رسوخ ضد الخير في نفوسهم وتعلق فطرتهم به. وذلك من جراء ما طرأ على سلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها من التطور إلى الفساد كما أشار إليه قوله تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات [التين: ٥، ٦]»[3].

وقد خاض كثير من المفسرين من أصحاب الكلام في تأويل هذه الآيات بناءً على أصولهم في قضية الجبر والاختيار وأفعال العباد. حيث قالوا: كيف يزين الله تعالى أعمال العباد ثم يعاقبهم عليها؟

والجواب عن ذلك من وجهين:

الأول/ أن تزيينه سبحانه وتعالى للعباد أعمالهم السيئة هو عقوبة منه لهم على إعراضهم عن توحيده وعبوديته، وإيثارهم معصيته على طاعته، مع قيام الحجة عليهم بما أقامه ونصبه لهم

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري. ١٩/ ٤٢٦. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير. ٦/ ١٦١. روح المعاني، للألوسي. ١٠/ ١٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٦/ ١٦١.

(٣) التحرير والتنوير، ١٩/ ٢٢٠.

من الأدلة، ومع بيانه سبحانه لهم السيئ من الحسن، فإذ آثروا القبيح واختاروه وأحبوه ورضوه لأنفسهم ارتفعت رؤية قبحه من قلوبهم .فرؤه حسنا عقوبة لهم، فإنه إنما يكشف لهم عن قبحه بالنور الذي في قلوبهم، وهو حجة الله عليهم فإذا تمادوا في غيهم وضلالهم ذهب ذلك النور، فلم يروا قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم.

لثاني/ أن هذا التزيين منه سبحانه وتعالى هو ابتلاء واختبار للعباد ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى:﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله[1] ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد تتابعت آيات الله تعالى الدالة على عدله تعالى وحكمته؛ قال تعالى في المهتدين: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَّ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُّ قُلُوبَهُمْ وَاللهُّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصَّف:٥].

وبهذا يتوجه المقال، وينقطع دابر الخلاف، فيما يتعلق بهذه المسألة والله تعالى أعلم.

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري. ٣/ ٣٤٨.مفاتيح الغيب، للفخر الرازي. ١٣/ ١٠٩- ١١١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي. ٤/ ٢٣٨. محاسن التأويل، للقاسمي. ٤/ ٤٦٥. المحرر الوجيز، لابن عطية. ٤/ ٢٤٨.

المبحث الثاني

تزيين الشيطان للأعمال

إن وظيفة الشيطان الكبرى هي نقض صرح التوحيد وإقامة صرح الشرك على أنقاضه، وهدم مجتمع الفضيلة، وتقطيع أوصاله، وإهدار قيمه، وبناء مجتمع الرذيلة على أشلائه، ولذلك سلك مسلك إغواءُ الناس وإضلالهم؛ حتى يقعوا في الكفر والمعاصي، ويفعلوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ألم يقل: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤٠].

لقد حدد عدته في التزيين والغواية؛ وتزيينه يكون تارة بالتحريض على عدم الانقياد والطاعة، والإغواء بالاستمرار على المعاصي والسيئات، وتحسين ذلك لهم في النفوس حتى يعجبوا به، فيصير حسنا مستمرءاً بفعل الوسوسة والإغراء، والقعود لهم كل مرصد، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ*ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٦-١٧].

ويكون تارة أخرى بتسليط الأعوان، والإجلاب عليهم بخيله ورجله دون كلل ولا ملل كمال قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[الإسراء: ٦٤].

هذا هو البلاء –بلاء التزيين– الذي يصبه الشيطان على الإنسان، فالغفلة والهوى وإن كانا أصل الشر كما قال تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[الكهف:٢٨]. إلا أنهما لا يستقلان (بفعل السيئات إلا مع الجهل. وإلا فصاحب الهوى، إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضررا راجحا: انصرفت نفسه عنه بالطبع. فإن الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها، وبغضا لما يضرها. فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررا راجحا. بل متى فعلته كان لضعف العقل. ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل، وذو نهى، وذو حجا. ولهذا

كان البلاء العظيم من الشيطان. لا من مجرد النفس. فإن الشيطان يزين لها السيئات. ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسن. التي هي منافع لا مضار)[1].

وهذا البلاء لم يقِف عند قوم؛ فهو قديم قدم المجتمع الإنساني؛ كما قال تعالى :﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

في هذه الآية بيان صريح جدًّا يكشف عن سر هؤلاء؛ وهو تزيين الشيطان لأعمالهم، فقد عرّفهم الله الحق وما يؤدي إليه، والباطل وما يترتَّب عليه، فمن هاهنا كانوا ضمن دائرة الاستبصار-فلا عذر لهم في صدِّهم عن السبيل- ولكن دائرة الاستبصار هذه انطفأَت في صدور الذين كفروا؛ وذلك بعد أن زيَّن لهم الشيطان أعمالَهم، واتبعوا أهواءهم، وعلى هذا كانت دائرة العمى، وعندما جاءهم رسول من ربهم كي يعيدهم إلى دائرة الاستبصار، صدوا عن سبيل الله، وكان الصاد لهم تزيين الشيطان لأعمالهم [2].

والشيطان عندما يبرز للتزيين، يبحث عن مواضِع الضَّعف عند الإنسان فيركز عليها، وذلك حيث لم (تعد الشدَّة تثير فيه الإحساس، وتعطَّلت أجهزة الاستقبال الفطريَّة فيه، فلم يعُد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبِّه القلوب الحية للتلقِّي والاستجابة، والشدَّة ابتلاء من الله لعبده، فمن كان حيًّا أيقظَته، وفتحت مغاليق قلبه، وردَّته إلى ربِّه، وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه، وإن كان ميتًا حسب عليه ولم تفِده شيئًا، وإنما استقطعَت عذرَه وحجَّته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب)[3].

وفي مسيرة التزيين الشيطاني يطالعنا النص القرآني بصور في مواطن عدة لهذه الحقيقة، ففي

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية. ١٤/ ٢٨٩- ٢٩٠.

(٢) ينظر: الانحرافات الكبرى القرى الظالمة في القران الكريم، سعيد ايوب . ص ٩٢.

(٣) ينظر: الاتباع أنواعه وآثاره في بيان القرآن. محمد بن مصطفى السيد. ٢/ ٥٢٥.

قصَّة الصراع الأول مع آدام عليه السلام وزوجه حرَّك في نفسيهما رغبة الخلود، فأوقعهم من خلالها في شراكه. قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠ – ٢٢].

(من هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود)[1].

وهكذا يمضي الشيطان في تتبع مواضِع الضَّعف حتى وجد ضالته في قسوة القلب، صورة أخرى لهذه الحقيقة يعرضها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

هؤلاء قوم بعث الله تعالى إليهم الرسل فكذبوا؛ فأخذهم الله بالبأساء والضرَّاء لعلَّهم يتضرَّعون، ويتذللون، لربهم، ويتوبون عن ذنوبهم إذ المفروض أن تتخشع النفوس عند نزول الشدائد؛ فإنها موقظة للقلوب الغافلة، لما فيها من استشعار القلوب للضّعف أمام قدرة الله تعالى الغالب القاهر فوق كل شيء. لكن الإحساس بالضعف وجد مانعان يمنعان أثره. فإذا كان قد وجد سبب الضراعة فقد وجد المانع منها. والمانع منها أمران:

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان،٢/ ١١٢.

أحدهما – قسوة قلوبهم؛ فإن الضراء والبأساء لكي تنتجا آثارهما الحقيقية من الضراعة يجب أن تتركا آثارًا في القلوب تكون مذكرة بانتظام دائم لهما، ولكن القسوة والغرور، والعجب والاستكبار منعت تلك الآثار.

الثاني – تزيين الشيطان لهم أعمالهم متخذا من قسوة قلوبهم عونا على نفث مراده فيهم. من الاستمرار على هذا الكبر والتكذيب للرسل، فصاروا معجبين بأعمالهم على قبحها وسوئها(١).

وهذه الآيات وإن تحدثت عن أمم قبلنا ممن أرسل الله لهم رسلًا، فإنها تتحدث كذلك عن جانب من أسرار سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير؛ لنأخذ نحن حذرنا، ونتعظ وندرك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة.

ونختم هذه الصور بموطن كانت فيه الرغبة في الغلبة، والسيادة وعلو الكلمة، مع وجود المساند والمعين، نقطة الضعف التي دخل منها الشيطان لتزيين العمل وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨].

فالشيطان هنا زين للكفار قتال المؤمنين، وأوهمهم أن النصر حليفهم؛ وبه سيصبحون حديث الجزيرة العربية كلها، لهم الكبرياء والكلمة وتخافهم الناس وتهابهم فهم أكثر عددًا وعدةً وهو معين لهم، لكنه ما لبث أن خذلهم حال رؤيته للملائكة، إذ علم أنه لا قوة به ولا منعة فأوردهم وأسلمهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]. تلك عادة عدو الله لمن أطاعه، إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم؛ لأنه قضى وطره، وحصَّل مأربه منهم.

(١) ينظر: روح المعاني، للألوسي. ١٤٣/٤. التحرير والتنوير، لابن عاشور. ٢٢٨/٧- ٢٢٩. زهرة التفاسير، لأبي زهرة.٥/ ٢٤٩٧- ٢٥٠٠.

وهكذا تمضي خطة الشيطان التي اختطها لنفسه وأقسَم على تنفيذها ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

حتى إذا تمَّ له بهذا التزيين مراده من الناس بإيقاعهم في الكفر، أسلمهم للهلاك، وأظهر قطع العلاقة وتهاون الصِّلة، بدعوى الخوف من الله ربِّ العالمين[1] ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

(١) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين علي الصغير. ص ٢٩٥.

المبحث الثالث

تزيين القرناء للأعمال.

إن من سنة الله تعالى الكونية القدرية أن جعل الخير والشر فتنة كما قال تعالى :﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. وجعل للخير أهلا وللشر مثل ذلك، وجعل لهؤلاء وأولئك؛ أقرانا وأعوانا، كانت لكثير منهم التبعية المطلقة التي اتخذت طرقا ومظاهر ومنطلقات شتى على مر التاريخ البشري، واختلاف الزمان والمكان، وإن جمعتها وحدة النهايات، ففي نهايات تبعية أقران وأعوان الشر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا للّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ*إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ*وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [الأنبياء:١٦٥-١٦٧].

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى– : «هذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم فان أعماله كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة وموالاة كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض والعطاء والمنع والموالاة والمعاداة والتقريب والإبعاد»(١).

ومثل ذلك قول عز وجل : ﴿وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ *لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ* وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ *أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ

(١) الرسالة التبوكية، لابن القيم . ص٥٠.

كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ*مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ*الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ* قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ* قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾[ق:٢١-٢٨].

في هذه الآيات مشهد من مشاهد الآخرة؛ إذ جاءت كل نفس للحساب والجزاء، ومعها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شرّ. وفي هذا الموقف العصيب يقال له: هذا هو الموعد الذي غفلت عنه، وهذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه، وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها. فالآن فانظر. فبصرك اليوم حديد.

هنا يتقدم قرينه، وقد يكون الملك الموكل به مشيرا إلى ما معه من كتاب عمله، هذا مكتوب عندي عتيد مهيأ للعرض. وقد يكون الشيطان المقيض له مشيراً إليه بما هيأه له بإغوائه وإضلاله؛ من الكفر والتكذيب بالحق ومعاندته، ومنع الخير والاعتداء على عباد الله، وعلى حدوده والشك في وعده ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن شرك بالرحمن، فاستحق العذاب الشديد في جهنم. وقد تبرأ منه قرينه حاملا عليه إثمه؛ إذ لم يكن له عليه سلطان، ولا حجة، فهو الذي ضل وابتعد عن الحق باختياره، فأعانه قرينه بتزيين عمله وإغوائه(١).

كل ذلك بمشيئته عز وجل وكونه وقدرته -وهو الحكيم في أفعاله- قال جل وعلا: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٥].

هذه سنته عزوجل في كل معرض جاحد للحق، يقيض لهم قرناء ملازمون لهم في الضلالة: إما في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمته، وإما في باطن النفوس مثل شياطين الوسواس، يزينون

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري. ٢٢/ ٣٤٩-٣٥٠. تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير. ٧/ ٣٧٤- ٣٧٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود. ٨/ ١٣٠- ١٣١. ٨/. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي. ص ٨٠٥-٨٠٦.

لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها. ويزينون لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، بأنه لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار. حتى صدقوهم على ذلك، وسهل عليهم فعل كل ما يشتهونه، وركوب كل ما يلتذونه من الفواحش باستحسانهم ذلك لأنفسهم. فحق عليهم العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس. فاستووا هم وإياهم في الخسار والدمار[1]. فما أبأسها من نهاية.

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري. ٢١/ ٤٥٩. تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير. ٧/ ١٥٩. التحرير والتنوير، لابن عاشور. ٢٤/ ٢٧٤.

المبحث الرابع

تزيين الأعمال لغير واحد (غير مسما فاعله).

أودع الله عز وجل نور الإيمان في قلب من شاء من عباده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل ثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر(١).

قال تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

في هذه الآية (ضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة وهي الكوة في الحائط فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج وحتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه وهي مثل القلب، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافاً هي في قلب المؤمن وهي الصفاء والرقة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد في الحق ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها)(٢).

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا، فمنهم من نوره كالشمس

(١) ينظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم. ص ٥٢.

(٢) المصدر السابق. ص ٥٢.

وآخر كالقمر وآخر كالنجوم وآخر كالسراج وآخر يُعطى نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويُطفأ أخرى إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا(١).

قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

لقد قررت الآيات السابقة أثر الإيمان في قلب العبد وما يُحدِثه فيه من حياة بعد الموت، وما يُطلقه فيه من نور بعد الظلمات. فشتان بينه وبين قلب عبد حال الكفر بينه وبين النور فهو ظلمة كما قال عز وجل :﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فهذا مثل ضربه الله تعالى لمن كان في الضلالة هالكا حائرا، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله، وجعل له نورا يمشي به في الناس كيف يسلك وكيف يتصرف به، هل يستوي هو ومن مثله في ظلمات الكفر والمعاصي، والأهواء والضلالات المتفرقة، لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه. قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك. وكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيرا: فكانت الإجابة بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فحُسنت لهم أعمالهم، وزُينت في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقا. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون، ولأهوائهم يتبعون(٢). قال تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ

(١) ينظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم.. ص ٥٢.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري. ١٢/ ٨٨- ٩٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير. ٣/ ٢٩٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي. ص ٢٧١.

سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

كل ذلك قدر من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له كمال قال سبحانه:﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر:٨].

فالذي يُنشئ هذا التزيين ابتداء هو مشيئة الله التي أودعت في فطرة الإنسان الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة، تبتليه بالاختيار للظلمة أو النور. فإذا اختار الظلمة زُينت له؛ فيتجرأ على ربه فينسب له ما لا يليق بجلاله عز وجل قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ للّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الرعد:٣٣].

في هذه الآية أورد سبحانه على المشركين ما يجري مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم؛ حيث أنكر عليهم عز وجل ضلالهم في اتخاذ شركاء من دونه، ليس لهم ماله عز وجل من صفات القدرة والكمال والجلال فهو سبحانه؛ المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، بما كسبت من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من ذلك بل يجازي كلا بعمله، أفمن هذه صفاته كمن ليس كذلك من هذه الأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ ثم لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال: قل سموهم. وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم. أم تنبئونه سبحانه بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. أم أن تلك التسمية لهم بالشركاء ظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار. ثم إنه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم وأنهم لا

ينتفعون بذكر هذه الدلائل، لأنه زُين لهم مكرهم وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله. فصدوا بذلك التزيين عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ومن يضلل الله يخذله. فما لهم من هاد يوفقهم للهدى(١). بل هم متخبطون متحيرون مترددون، أنكروا وجود الباري، فقالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾[الفرقان: ٦٠]. وأنكروا البعث، فقالوا: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[يس: ٧٨]. وأنكروا بعثة الرسل، فقالوا: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾[القمر: ٢٤]. وزعموا أن التحريم والتحليل إليهم، فابتدعوا من ذاتهم مقتفين لشهواتهم التحريم والتحليل، ثم زادوا على ذلك كله بأن غيروا دين الله، وأحلوا ما حرم، وحرموا ما أحل(٢). كما حكاه الله عنهم في مواضع منها قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[التوبة:٣٧].

قال ابن كثير –رحمه الله تعالى– : «هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله من الأشهر الأربعة»(٣).

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي. ١٩/ ٤٤– ٤٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود. ٥/ ٢٤. فتح القدير، للشوكاني.٣/ ١٠١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي. ٣/ ١٨٩.

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي. ٢/ ٥٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم. ٤/ ١٣٢.

وقال السعدي -رحمه الله تعالى-: «فهذا -كما أخبر الله عنهم- أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير؛ منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه. ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراما، والحرام حلالا. ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله» (١).

فما أبعده من ضلال حملهم عليه تزيين أعمالهم حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن فضلوا ولم يهتدوا.

وقد اختلف المفسرون في نسبة التزيين في هذه الآيات؛ على أقوال منها؛ أن التزيين الواقع فيها هو من الله تعالى، وقيل من الشيطان، وقيل: شياطين الإنس والجن، وقيل: الأكابر(٢).

وعلى أي منها فإنه ينبغي النظر إلي الروح السارية أو الحياة النابضة الآخذة بلب السياق؛ لأن السياق قد يحمل ما هو أكثر أهمية من ذكر الفاعل، فيبرز غرضًا أساسيًا أو جوهريًّا حاملاً معه من الأغراض ما يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام وهو ما قد يفوته ذكر الفاعل(٣).

فصيغة البناء للمجهول في هذه الآيات تجعل الفاعل للتزيين غير واحد، وغير جهة وغير وسيلة، لتتسع الدائرة في عصرنا هذا؛ عصر التفنن في قلب الحقائق ليخرج السيء في صورة الحسن، والحسن في صورة السيء؛ بما توفر من وسائل التغيير والتزوير والتحريف عبر وسائل التواصل والاتصال خاصة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص ٣٣٦.

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري. ١٢/ ٩٢- ٢٠/ ٤٤١. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان.٤/ ٦٣٥. فتح القدير، للشوكاني. ٣/ ١٠٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور. ٨/ ٤٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي. ص ٢٧١، ٦٨٥.

(٣) ينظر: الإعجاز البلاغي في استخدام الفعل المبني للمجهول، لمحمد السيد موسى. (د.ط).(د.ت).ص٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله وتوفيقه تدرك الغايات، ففي ضوء ماسبق من خلال هذا البحث توصلت إلى جملة من النتائج منها:

١ -أن التزيين حسي ومعنوي، وقد استوعب القرآن الكريم كلا النوعين بالبيان.

٢ -سلك القرآن الكريم في بيان التزيين المعنوي طريقين؛ الأول: ما سُمي فاعل التزيين فيه. والثاني: ما لم يسمَ فاعله.

٣ -خاض كثير من المفسرين من أصحاب الكلام في تأويل الآيات التي نُسب فيها التـزيين لله تعالى بناءً على أصولهم في قضية الجبر والاختيار وأفعال العباد. حيث قالوا: كيف يزين الله تعالى أعمال العباد ثم يعاقبهم عليها؟ وهوما أجيب عنه بوجهين:

الأول: أن تزيينه سبحانه وتعالى للعباد أعمالهم السيئة هو عقوبة منه لهم على إعراضهم عن توحيده وعبوديته، وإيثارهم معصيته على طاعته، مع قيام الحجة عليهم بما أقامه ونصبه لهم من الأدلة، ومع بيانه سبحانه لهم السيئ من الحسن.

الثاني: أن هذا التزيين منه سبحانه وتعالى هو ابتلاء واختبار للعبـاد ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمـن من الكافـر، كما قال تعالى :﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٤ - أقسم الشيطان بقوله ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤٠]. حتى إذا تمَّ له بهذا التزيين مراده من الناس بإيقاعهم في الكفر، أسلمهم للهلاك، وأظهر قطع العلاقة وتهاون الصِّلة، بدعوى الخوف من الله ربِّ العالمين ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

٥ -أن من سنة الله عز وجل في كل معرض جاحد للحق، أن يقيض لهم قرناء ملازمون لهم في

الضلالة: إما في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمته، وإما في باطن النفوس مثل شياطين الوسواس، يزينون لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها. ويزينون لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، بأنه لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار. حتى إذا صدقوهم على ذلك. حق عليهم العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم.

٦- أن صيغة البناء للمجهول في آيات التزيين تجعل الفاعل للتزيين غير واحد، وغير جهة وغير وسيلة، لتتسع الدائرة في عصرنا هذا؛ عصر التفنن في قلب الحقائق ليخرج السيء في صورة الحسن، والحسن في صورة السيء؛ بما توفر من وسائل التغيير والتزوير والتحريف عبر وسائل التواصل والاتصال خاصة.

بعد هذا العرض السريع للنتائج التي توصلت إليها خلال هذا البحث لا يسعني إلا أن أختمه ببعض التوصيات وهي:

١ تدبر الآيات القرآنية ففيها علاج لكل قضايا الإنسانية ومشاكل البشرية.

٢-التوسع في موضوعات علوم القرآن الكريم عامة والتفسير الموضوعي من قبل المعنيين بالقرآن وعلومه خاصة ما يرتبط منها بالواقع ونوازله.

٣- دعم الدراسات القرآنية والشرعية عامة وتكريسها لخدمة الإسلام والمسلمين.

وفي نهاية هذا البحث أشكر الله تعالى أن أعانني على كتابته، ووفقني لجمع معلوماته وأسأله سبحانه أن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم.

سبحان ربك ربِّ العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البحر المحيط في التفسير. أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ). المحقق: صدقي محمد جميل. دار الفكر – بيروت. ١٤٢٠ هـ.

الاتباع أنواعه وآثاره في بيان القرآن. محمد بن مصطفى السيد. مؤسسة صلاح السلي١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ). راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

الأساس في التفسير، سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ). دار السلام – القاهرة. الطبعة السادسة، ١٤٢٤ هـ.

الإعجاز البلاغي في استخدام الفعل المبني للمجهول، محمد السيد موسى.(د.ط).(د.ت).

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: محمد حامد الفقي. مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ). المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ.

الانحرافات الكبرى القرى الظالمة في القران الكريم، سعيد ايوب. دار الهادي للطباعة

والنشر والتوزيع. الطبعة: الاولى ١٩٩٢.

التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). الدار التونسية للنشر – تونس. ١٩٨٤ هـ.

تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ). دار إحياء التراث العربي – بيروت.

تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ). تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). المحقق: محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٩ هـ.

تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ. المحقق :محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة :الأولى. ٢٠٠١م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ). المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

الرسالة التبوكية. محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية أبو عبد الله. المحقق: محمد عزير شمس. الناشر: مجمع الفقه الإسلامي بجدة

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين محمود بن عبد الله

الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ). علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ).دار الفكر العربي. (د.ت).

الصورة الفنية في المثل القرآني ، دراسة نقدية وبلاغية ، الدكتور محمد حسين علي الصغير. دار الرشيد للنشر.١٩٨١هـ.

فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ). دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ). دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.

لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ). دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ). المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى – ١٤٢٢ ه.

محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ).المحقق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلميه – بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ). دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا. المحقق : عبد السَّلام محمد هَارُون. اتحاد الكتاب العرب. الطبعة : ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

نور التوحيد وظلمات الشرك في ضوء الكتاب والسُّنَّة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني. مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث – القاهرة.
الطبعة الثالثة، ١٩٩٩ م.